﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ثم الزكاة التالية لها ﴿وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ ثم يفسر عقيدة الإيمان بعدما فسر عمله كأفضله: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ والنتيجة ككل ﴿أُولَٰٓئِكَ﴾ الأكارم في شطري الإيمان بشرطيه عقيدياً وعملياً ﴿سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

أجل، فالعلمُ الراسخ في القلب هو قلب العلم ولزامه راسخ الإيمان، وهو العلم المستقر الذي لا يشوبه جهل أو جهالة في مواد الإيمان عقيدياً وعملياً.

وأما العلم والمعرفة غير الراسخة في القلب فقد تتأرجف وتنقلب كفراً وجحوداً أعاذنا الله منه، اللّهم إلّا المعرفة السالكة سبيل الكمال تأييداً من ذي الجلال ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾[1].

ولكي يعلم أن الوحي سلسلة موصولة واحدة من إله واحد مهما اختلفت فيه بعض المظاهر ينبهنا ربنا:

﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾:

فالوحي الرسالي في أصله واحد مهما تكثَّر في فصله ونسله قضية مختلف الحاجات والظروف، وهنا ﴿وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ﴾ يعمّ إلى سائر أولي العزم وهم إبراهيم وموسى وعيسى، مَن دونهم من أصحاب السموِّ الرسالي كإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وأيوب ويونس وهارون وسليمان وداود، فهؤلاء التسعة هم في الدرجة الثانية من الوحي، ومن ثم من ﴿لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ﴾ ومن ثانية الدرجة الثانية اثني عشر نبيّاً ذكروا في سائر

(١) سورة محمد، الآية: ١٧.

القرآن، ويعرف محتد كلّ في رسالته ونبوته من الآيات التي تحمل ذكراهم بهداهم.

وذكر نبيَّنا محمد ﷺ أولاً وهو آخرهم مبعثاً لأن القصد ذكر النبوة الأصيلة التي يرأسها نبيّنا، ومن ثم نوح وهو أوّل النبيين من أولي العزم مهما سبقه نبي كإدريس، والمشابهة بين الوحي إلى أوّل النبيين الأصلاء وآخرهم تعني أنهم سلسلة موصولة واحدة من منبع واحد، موكب واحد يتراءى على طريق التاريخ الرسالي المتواصل المتآصل، يضم هذه الصفوة المختارة من شتَّى الأقوام وشتَّى البقاع في شتَّى الأمصار والأعصار.

ذلك وفي هذا التشبيه الجماعي: ﴿أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾ حيث الممثل به كلّ وحي رسالي قبل الوحي إلى نبينا، فيه دليل أنه «جمع له كلّ وحي»[(١)] بلا إبقاء، فقد أوحى إليه ﷺ كلّ ما أوحى إلى كلّ أنبيائه ورسله وله زيادة تحمل خلود رسالته.

ذلك لأن أقل ما يحمله هذا التشبيه كمٌّ الوحي وكيفه، ومن ثم كمٌ وكيفٌ هما رمز الخلود في هذه الرسالة الأخيرة.

وترى كم عديد ﴿وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ﴾؟ المستفاد من آيات النبوة والرسالة؟ إن عديد الرسل أكثر بكثير من النبيين، مهما اختلفت الروايات في عدد كلّ منهم.

و«الأنبياء» في بعضها تعمُّها بتأويل كونها جمعاً لكلا النبيء والنبيِّ لا سيّما وأن الرسل فيها أقل ذكراً بينهم، فالمعني منهم أصحاب الرسالات العظيمة أنبياء وسواهم[(٢)].

---

(١) نور الثقلين ١: ٥٧٣ في تفسير العياشي عن زرارة وحمران عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام قال: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾ [النساء: ١٦٣] فجمع له كلّ وحي.

(٢) الدر المنثور ٢: ٣٤٦ - أخرج بعدة طرق عن أبي ذر قال قلت يا رسول الله ﷺ كم الأنبياء؟=

﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾:

﴿مِن قَبْلُ﴾ هنا تعني قبل هذه الآية، ثم ﴿لَّمْ نَقْصُصْهُمْ﴾ تعم من قصهم الله عليه من بعد ومن لم يقصصهم لا قبل ولا بعد، حيث القرآن ليس كتاب القصة كأصل، وإنما يقص من تأريخ الصالحين والطالحين ما يصلح عبرة لهذه الأمة.

وقد يلمح تخصيص موسى عليه السلام بالذكر هنا بأنه يحمل أهم النبوات بعد نبينا، وقد أدرج إبراهيم وعيسى وقبلها نوح درج سائر النبيين المذكورين.

وليس تكليم الله موسى كما يكلم خَلْقٌ خَلْقاً فقد «كلّم موسى تكليماً بلا جوارح وأدوات ولا شفه ولا هوات سبحانه وتعالى عن الصفات».

﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾:

قصصنا أم لم نقصص ﴿رُّسُلًا﴾ هم سواء في كونهم ﴿مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ كما حمّلوا، وذلك التبشير والإنذار الرسالي ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ﴾ إذ كانوا يحتجون على الله لولا الرسل: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن

= قال: مائة ألف نبي وأربعة وعشرون ألفاً قلت: يا رسول الله كم الرسل منهم؟ قال: ثلاثمائة وثلاثة عشر جم غفير ثم قال: يا أبا ذر أربعة سريانيون آدم وشيث ونوح وأخنوخ وهو إدريس وهو أول من خطّ بقلم وأربعة من العرب هود وصالح وشعيب ونبيك وأول نبي من أنبياء بني إسرائيل موسى وآخرهم عيسى وأول النبيين آدم وآخرهم نبيك.

أقول: وفيه في حديث أبي أمامة عنه صلى الله عليه وآله وسلم «وخمسة عشر» بدلاً عن ثلاثة عشر.

وفيه عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «كان فيمن خلا من إخواني من الأنبياء ثمانية آلاف نبي ثم كان عيسى ابن مريم ثم كنت أنا بعده». أقول: لعله يعني أكابر من أوحي إليهم لا كلهم.

قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾[١] - ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[٢] ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[٣] [٤].

صحيح أن العقل رسول في الأنفس كما الشعور في أنفس الحيوان مهما اختلفت الدرجات، ولكنما المسؤولية التي تحملها رسالة الوحي الآفاقية لا يحملها رسول العقل، فلا يهلك بعذاب الاستئصال من لم يأتهم رسول مهما كانوا مسؤولين بما يحمله رسول العقل ويحمِّلهم إياه.

ومن ثم فنفس الضلال لولا رسالة الوحي خزي وذلٌّ لمثل الإنسان الذي خُلِقَ في أحسن تقويم، فمع الغض عن سلب المسؤولية لولا الرسالة، هنا حجة لهم على الله لماذا لم يرسل رسلاً ﴿فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[٥] «ولا أحد أحبّ إليه العذر من الله ولذلك بعث الرسل مبشرين ومنذرين»[٦].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا﴾ قادراً على إرسال الرسل فلماذا لا يرسل ﴿حَكِيمًا﴾ في مادة الإرسال ونوعيته فلماذا لا يرسل، فعزته تعالى وحكمته حجة عليه من الناس لو لم يرسل رسلاً مبشرين ومنذرين، ولذلك كله: «فبعث فيهم رسله وواتر إليهم أنبياءه ليستأدوهم ميثاق فطرته ويذكروهم منسي نعمته ويحتج

(١) سورة طه، الآية: ١٣٤.
(٢) سورة القصص، الآية: ٤٧.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ١٥.
(٤) لتفصيل البحث حول حجة الرسالة راجع تفسير هذه الآية في سورة الأسراء ج ١٥ الفرقان.
(٥) سورة القصص، الآية: ٤٧.
(٦) الدر المنثور ٢: ٣٤٨ - أخرج أحمد والبخاري والترمذي والنسائي وابن المنذر وابن مردويه عن ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ: لا أحد أغير من الله من أجل ذلك حرَّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا أحد أحب إليه المدح من الله من أجل ذلك مدح نفسه ولا أحد أحب إليه العذر...

عليهم بالتبليغ، ويثيروا لهم دفائن العقول، ويرُوهم آيات القدرة، من سقف فوقهم مرفوع، ومهاد تحتهم موضوع، ومعايش تحييهم، وآجال تفنيهم، وأوصاب تهرمهم، وأحداث تتابع عليهم، ولم يخل الله سبحانه خلقه من نبيٍّ مرسل، أو كتابٍ منزل أو حجةٍ لازمة، أو محجةٍ قائمة، رسل لا تقصر بهم قلَّة عددهم، ولا كثرة المكذبين لهم، من سابق سمى له من بعده، أو غابر عرفه من قبله، على ذلك نسلت القرون ومضت الدهور وسلفت الآباء وخلفت الأبناء إلى أن بعث الله نبيّه محمداً ﷺ (١).

وصحيح أن لله الحجة البالغة في الآفاق والأنفس بما منحهم من الفِطَر والعقول، ولكنه سبحانه رحمة لعباده، وتقديراً لكون خلقه في أحسن تقويم، ولغلبة الشهوات على ذلك الحسن القويم، اقتضت رحمته التي كتبها على نفسه أن يرسل إليهم ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ يذكرونهم ويبصّرون محاولة استنقاذ فطرهم وتحرير عقولهم من ركام الشهوات التي هي حجابات عن دلائل الهدى وموحيات الإيمان في الآفاق والأنفس.

ودور العقل بين رسالات الوحي الآفاقية والأنفسية هو دور الوسيط بين الفطرة والشرعة الربانية، وكما أمرنا بإقامة وجوهنا للدين حنفاء ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ﴾(٢).

فبالفطرة والعقل تعرف شرعة الله، ثم في تجاوب صالح بينهما يُتعرف إلى مرماها ومغزاها، دون استقلالية بجنبها ولا استغلالية بها، فإنما هو التسليم السليم أمام وحي الشرعة الربانية، المكملة لوحي الفطرة والعقلية الإنسانية.

إن شرعة الله تستنقذ العقلية الإنسانية وفطرتها مما يرين عليهما من

(١) نور الثقلين ١: ٥٧٦ في نهج البلاغة قال عليه السلام: فبعث..
(٢) سورة الروم، الآية: ٣٠.

ركامات الشهوات والقصورات والتقصيرات، وترسم لهما منهج التلقي الصالح الصحيح.

وليس دور العقل دور الحاكم بجنب الشرع، فبعد أن يتأكد من صحة صدور الشرعة عن الله فليس دوره إلّا التفهّم عنها بصورة صالحة والتسليم لها تماماً دون التقحّم عليها.

وإن رسالات السماء كلها تخاطب العقول التي تتبنى الفِطَر، لكي تعقل وحي الله تماماً فتتكامل به وتتصاعد إلى المراقي السامقة التي تتجاوب مع أحسن تقويم.

فالعقل الإيماني السليم هو الوسط بين إفراط التأليه للعقل الإنساني لحدٍّ يحق له إبطال شرعة الله، وبين تفريط الإلغاء له عن بكْرَتِهِ فعليه أن يصدّق كلّ ما يُعرض عليه من واردٍ وشاردٍ مهما يرفضه أو لا يفرضه.

كلا! إنه رسول الوحي في الباطن ليتلقى وحي الشرعة من رجالات الوحي بعدما عرف صدقهم بآيات الرسالة الصادقة.

فليس للعقل أن ينتقص شرعة الله أو وينتقضها، فإنما عليه أن يتفهمها لكي يطبقها، وليس فرض تسليمه لها انتقاصاً له، بل هو تحديد لدوره كما حدَّه الله، فلأن العقل محدود غير طليق وشرعة الله نازلة بعلم الله الطليق غير المحدود، فليكن الأصل هو شرعة الله، ولها تخطئة العقل واستكماله ولا عكس.

وليس ما يتم بالرسالة - عن طريق العقل نفسه - ليتم بغيرها، فضلاً عن العقل نفسه، فالتاريخ البشري على طوله لم يسجِّل لنا أن عقلاً واحداً من العقول الكبيرة النادرة الناضجة النابغة اهتدى إلى مثل ما اهتدت إليه العقول العادية بالرسالة، لا في تصورات عقيدية، ولا في خُلق، ولا في نظام حياة، ولا في تشريع لذلك النظام.

فلا نجد أي فيلسوف عبقري لامع بمستوى أدنى رسل الله في التصور الصالح عن الكون ومعرفة المكون والشرعة التي بلّغها العالمين.

فالخلخلة وعدم الاتزان والتوازن هي الطابعة الدائمة العشيرة للحياة العقلية المنفصلة عن رسالة الوحي، مهما تلمَّعت العقول والعلوم وتضخمت في بعض جوانب الحياة حيث تنطفي جوانب أخرى وقد يذوب تلمُّعها بعد حين.

وأما رسالة الوحي فـ ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[1]!.

﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾:

دور ﴿لَّٰكِنِ﴾ هنا إضراب عما يتقولون في نكران وحي القرآن كقولتهم نزَّل علينا كتاباً من السماء، أن القرآن بنفسه دليل وحيه الصارم من سماء الرحمة الربانية دونما حاجة إلى شهادة أخرى غير نفسه.

وأنه لا شهيد أشهد من الله ولا شهادة لله أشهد من كتاب الله، إذاً فالله هو الشهيد بين الرسول والمرسل إليهم فهل ترى من باقية؟: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ...﴾[2] - ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾[3].

أجل ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ﴾ فالقرآن شهيدٌ على وحيه لما يحوي من علمه، حال ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ﴾ بما أنزل حيث الرسالة الملائكية مشهودة فيه ولكن ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ في كتابه الحكيم.

(١) سورة النساء، الآية: ٨٢.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٩.
(٣) سورة الرعد، الآية: ٤٣.

ثم و﴿بِعِلْمِهِۦٓ﴾ تشمل كلّ علمه لولا ﴿أَنزَلَهُۥ﴾ فقد تتحدد ﴿بِعِلْمِهِۦٓ﴾ بـ﴿أَنزَلَهُۥ﴾ بالممكن إنزاله إلى خلقه مما يلمح بإن الله أنزل من علمه في القرآن ما يمكن إنزاله إلى خلقه، فهو - إذاً - ما سوى العلم المختص بساحة قدسه تعالى.

وهنا إضافة «علم» إلى نفسه المقدسة دليل أنه يعني علمه الفعلي دون الذاتي الذي هو هو، فالخلق محرومون عن علمه الذاتي وكذلك علمه الرباني الذي به خلق ما خلق ودبَّر ما دبَّر، إذاً فـ «علمه» قد يشمل كلّ ما سوى علمه الذاتي وعلمه الفعلي الرباني الذي يتميز به عن خلقه[1].

وهنا ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦٓ﴾ إشارة إلى موضع شهادته في كتابه أنه علمه الصارم الطليق وكما تحدَّى به ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا

(١) نور الثقلين ١: ٥٧٤ في كتاب التوحيد عن علي عليه السلام كلام طويل وفيه: كلم موسى..
وفيه عن التوحيد بإسناده إلى محمد بن الجهم عن أبي الحسن عليه السلام حديث طويل وفيه يقول حاكياً عن موسى في قومه: يخرج بهم إلى طور سيناء فأقامهم في سفح الجبل وصعد موسى إلى الطور وسأل الله تبارك وتعالى أن يكلمه ويسمعهم كلامه فكلمه الله تعالى ذكره وسمعوا كلامه من فوق وأسفل ويمين وشمال ووراء وأمام لأن الله عز وجل أحدثه في الشجرة ثم جعله منبعثاً منها حتى سمعوه من جميع الوجوه.
وفيه عن علي عليه السلام حديث طويل يقول فيه وقد سأله رجل عما اشتبه عليه من الآيات: وكلام الله ليس بنحو واحد، منه ما كلم الله به الرسل ومنه ما قذفه في قلوبهم ومنه رؤيا يريها الرسل ومنه وحي وتنزيل يتلى ويقرأ فهو كلام الله فاكتف بما وصفت لك من كلام الله فإن معنى كلام الله ليس بنحو واحد فإن منه ما تبلغ رسل السماء رسل الأرض.
وفيه عن كتاب الاحتجاج روى عن صفوان بن يحيى قال سألني أبو قرة المحدث صاحب شبرمة أن أدخله إلى أبي الحسن الرضا عليه السلام فاستأذنته فأذن له فدخل فقال أخبرني جعلني الله فداك عن كلام الله لموسى عليه السلام فقال: الله أعلم ورسوله بأي لسان كلمه بالسريانية أم بالعبرانية؟ فأخذ أبو قرة بلسانه فقط فقال: إنما أسألك عن هذا اللسان فقال أبو الحسن عليه السلام: سبحان الله مما تقول ومعاذ الله لموسى عليه السلام فقال: الله أعلم ورسوله بأي لسان كلمه بالسريانية أم بالعبرانية؟ فأخذ أبو قرة قائل فاعل، قال: كيف ذلك؟ قال: كلام الخالق للمخلوق ليس ككلام المخلوق لمخلوق ولا يلفظ بشق فم ولسان ولكن يقول له كن فكان بمشيئته ما خاطب به موسى من الأمر والنهي من غير تردد في نفس.

كَثِيرًا﴾[١] ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[٢] ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾[٣].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾﴾:

الكفر اللازم دون تعدٍّ بصدٍّ عن سبيل الله ضلال قريب، وهو قريب إلى الهدى، ولكنه المتعدي ﴿وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ وهو غريب عن الهدى، حيث تعرق الكفر وتعمق فلا طريق لصاحبه إلّا طريق جهنم:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾﴾:

حيث أضافوا إلى ظلمهم أنفسهم بكفرهم ظلمهم إلى مَن سواهم حيث صدوهم عن سبيل الله، فقد سدّت عليهم طرق الهدى كما سدّوها على الحائرين، اللّهم:

﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾﴾:

وهذا جزاء وفاق حيث فتحوا طريق جهنم إلى أنفسهم وسواهم خلوداً في الكفر والصدِّ عن سبيل الله، فهم - إذاً - ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ﴾ ما دامت ومن ثم الموت المطلق المطبق خموداً مع خمود النار فلا نار - إذاً - ولا أهل نار.

(١) سورة النساء، الآية: ٨٢.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٨٨.
(٣) سورة البقرة، الآيتان: ٢٣، ٢٤.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١٧٠﴾:

﴿. . .قَدۡ جَآءَكُمُ﴾ محققاً دون ريب ﴿ٱلرَّسُولُ﴾ كأنه هو الوحيد في رسالة الوحي، إذ يحمل كلّ رسالات الوحي وزيادة ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ - «جاءكم بالحق - الرسول بالحق - بالحق من ربكم» جيئَة عظيمة في مثلثها، مجيئاً بالحق، رسالة بالحق، بالحق من ربكم، فقد يحمل إليكم كلَّ الربوبيات التربوية من ربكم، محلِّقة على كلِّ الحاجيات عرضَ المكان وطول الزمان.

و«الحق» الذي جاء به من ربكم هو الرسالة القرآنية السامية بما مع نفسه المقدسة من قمَّة عليا في العِصْمة التامة والبلاغ الرسالي، فهو بما جاء به حق طليقٌ لا حول عنه ولا نظرة لما فوقه إذ لا فوق له.

صحيح أن كافة رسل الله يجيئون بالحق من الرب، ولكنه حق محدَّد لردحٍ من الزمن يتحول إلى جديد وجديد هو سديد لزَمَنه، ولكن ذلك الحق الأخير لا حدَّ له ولا جديد بعده، بل هو جديد سديد لكلِّ زمان ومكان، لكلِّ جنٍّ وإنسان أم أيّاً كان.

﴿فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ﴾ آمنوا بذلك الحق الجديد يكن خيراً لكم من كلّ ما قبله، مهما كان كلّ حق من ربكم، ولكنه أحق بالإيمان وأحرى.

﴿وَإِن تَكۡفُرُواْ﴾ بذلك الحق فلن تضروا الله شيئاً ولن تنقصوا من مُلكه شيئاً ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾.

فلا يطلب منكم الإيمان بحق أم ذلك الحق ليتحقق ملكه، أو علمه وحكمته، فلا تنفعه طاعة من أطاعه ولا تضره معصية من عصاه، فإنما الإيمان هو ﴿خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ﴾ لا لله، فإنما ﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۖ﴾[1] وذلك الحق من حاقّ الرحمة فلا يريد منكم في الإيمان به إلّا ﴿خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ﴾.

(١) سورة الأنعام، الآية: ٥٤.